

القضايا العربية في المنتدى الاجتماعي الأوروبي

لماذا غاب موضوع التطبيع والحقوق الوطنية الفلسطينية؟

. لوليس أوليشان *

مركزية في الصراع ضد العولمة الرأسمالية في المنطقة العربية (لا في العراق وفلسطين وحدهما)، وهي مسألة تتصاعد المطالبة الشعبية العربية بها من قبل قطاعات واسعة من المجتمع العربي منذ عام ١٩٩١. وأعني: رفض التطبيع العربي - الإسرائيلي المفروض من طرف الولايات المتحدة عن طريق بناء متدرج للعلاقات الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية... بين إسرائيل والأنظمة العربية، ومن دون تخلي إسرائيل عن الأراضي المحتلة ولا عن إيديولوجيتها العنصرية الرجعية التي بُني عليها كيانها «القومي»: أي الصهيونية.

والحق أن التطبيع يشكل أداة أساسية لضمان الهيمنة الاقتصادية الإقليمية الإسرائيلية وتبعاتها المدمرة على البلدان العربية، بملحظ أن أقدام إسرائيل في الاقتصادات العربية مرتبط ارتباطاً مباشراً بتطبيق «إصلاحات» اقتصادية ومالية لا تحظى بقبول الشارع العربي. وهذه «الإصلاحات»، التي يديرها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي بإيحاء من واشنطن، لا تكفي بإجبار الدول العربية على خصخصة القطاعات العامة ولصالح التدخل الاقتصادي الأجنبي فحسب (بما يزيد من الفقر والتبعية الاقتصادية)، بل تُفيد بشكل

سياقهما الإقليمي العربي في العديد من الحالات - ومنها الوثيقة النهائية للمنتدى الاجتماعي الأوروبي. ففي هذا المنتدى تُنوّس من جديد أن النموذج النيولبرالي الذي تُسعى الولايات المتحدة إلى فرضه بالقوة المسلحة على العراق هو نفسه الذي يُفرض - من خلال الضغوط الاقتصادية والإملاءات السياسية الجبارة (كمبادرة الولايات المتحدة المعروفة باسم «منطقة الشرق الأوسط للتجارة الحرة» MEFTA) - على الأنظمة العربية الخائفة التي تتوقف «شرعيتها» على قبولها المطلق بالإملاءات الأميركية تلك، من أجل إعادة تشكيل الشرق الأوسط، لا على إرادة شعوب المنطقة. وبالمقدار نفسه تم فصل الاحتلال الإسرائيلي من سياقه الإقليمي الأوسع: فلم تُذكر الوثيقة النهائية الصلة المحكّمة بين الهدف الإسرائيلي في السيطرة على أراضي فلسطين، والأهداف الصهيونية الإقليمية التي هي جزء من الاستراتيجية الهادفة إلى فرض الهيمنة الإسرائيلية على المنطقة بأكملها.

غياب موضوع تطبيع العلاقات العربية - الإسرائيلية

يوصل المنتدى الاجتماعي الأوروبي تجاهل ضرورة الخوض في مسألة

بين ١٢ و١٦/١١/٢٠٠٣ عقّد المنتدى الاجتماعي الأوروبي اجتماعه في باريس. وعلى هامش الاجتماع العام عُقدت ندوة بعنوان «العراق: العولمة النيولبرالية والاحتلال والاستعمار الجديد». وقد أرسلت «لجنة التضامن مع القضية العربية» و«الحملة الإسبانية ضد الاحتلال ومن أجل سيادة العراق» مندوبين عنهما، وقدمت اللجنة الأولى مداخلة أيضاً في ندوة عُقدت في ١١/١٥ بعنوان «العدالة الدولية وجريمة الاعتداء على العراق: نحو محكمة مستقلة في العام ٢٠٠٤» حيث عرّضت تقريراً عن جرائم الحرب ضد المدنيين في العراق أعدّه ناشطون إسبان بقوا في العراق طوال فترة الحرب. كما شارك جوم بوطي Jaime Botey، ممثل «اللجنة» و«الحملة» أعلاه، في ندوة هناك بعنوان «تطبيع الاحتلال؟»

تقسيم السياق الإقليمي العربي

برغم موقف المنتدى الاجتماعي الأوروبي المتقدم في تأكيد العلاقة المباشرة بين احتلال العراق واحتلال فلسطين وضرورة التصدي لهما بشكل منسق، فإن «لجنة التضامن مع القضية العربية» مازالت تعبر عن قلقها إزاء التطرق إلى القضيتين الفلسطينية والعراقية خارج

* - مستعربة من إسبانيا، وعضو في هيئة تحرير المجلة الإسبانية الأمة العربية، التي تُشرف عليها «لجنة التضامن مع القضية العربية». وهي أيضاً عضو في «الحملة الإسبانية ضد الاحتلال ومن أجل سيادة العراق». www.nodo50.org/csca

يتجاهل «المنتدى» الخوض في مسألة
مركزية في الصراع ضد العوالة
الرأسمالية، وهي رفض التطبيع مع
إسرائيل

الإنسانية للشعب الفلسطيني، ولا بتبرير الإداة الدولية للاحتلال الإسرائيلي فحسب، بل تبرر أيضاً التأييد الواضح والصريح للقضية الفلسطينية ومقاومتها المشروعة: سواءً في تصميم المواطنين على عدم التعاون مع الاحتلال، أو في المقاومة المسلحة ضد الأهداف العسكرية الإسرائيلية والمستوطنات. ولما كان العنف اللامتكافئ الذي ترتكبه إسرائيل ضد فلسطين لا تمكن مقارنته أبداً بأعمال المقاومة الفلسطينية المسلحة المشروعة؛ ولما كانت الدراما المتمثلة في ظاهرة القنابل البشرية الانتحارية المتزايدة داخل إسرائيل لا يُمكن عزلها عن اللامساواة بين أوضاع السكان الخاضعين للاحتلال من جهة والقوة التي تمارس الاحتلال عليهم من جهة ثانية؛ فإن على المنتدى الاجتماعي الأوروبي أن يكون واضحاً في رفض أطروحة منتشرة داخل صفوفه، من طرف تيار السلام التابع للييسار الإسرائيلي الصهيوني، ومن طرف قسم كبير من اليسار الأوروبي الرسمي، تقول بأن العنف يؤدي «الشعبين بنسب متساوية [1]»

اليسار الصهيوني وتيار السلام
الإسرائيلي داخل المنتدى
الاجتماعي الأوروبي

لقد تماهى المنتدى الاجتماعي الأوروبي مع قلة داخل إسرائيل، وتحديداً مع أولئك الجنود الذين خطوا خطوة إلى

في أوروبا وفي المنتدى الاجتماعي الأوروبي ثمة بعدان حيويان في مسألة التضامن مع فلسطين: الأول هو الدفاع عن الحقوق الإنسانية للشعب الفلسطيني، والثاني هو إداة الاحتلال العسكري للأراضي المحتلة عام ٦٧... غير أننا مع عدم تشكيكنا إطلاقاً بالموقف الضروري الذي اتخذته المنتدى المذكور، فإن من الواجب أيضاً التفكير في العواقب التي قد تشكلها مسألة الدفاع عن الحقوق الإنسانية للفلسطينيين ومسألة شجب الاحتلال العسكري الإسرائيلي على مسألة ثالثة كانت وماتزال هي العمود الفقري للنضال الفلسطيني ولحركته الوطنية التحررية طوال تاريخها، وأعني: الحقوق الوطنية الفلسطينية المشروعة، التي تبقى هي أساس قضيتهم وتبقى منتهكة في فلسطين، بما يقدم الأساس السياسي الجوهرى لبناء حركة تضامن عالمية مع الشعب الفلسطيني ذات أهداف شعبية وتقدمية وديموقراطية.

تحت وطأة التسرع في جمع أكبر عدد ممكن من القوى والتيارات والحساسيات المختلفة داخل المنتدى الاجتماعي الأوروبي، وفي أجواء العداء الشديد الذي تُفرضه السياسة الأميركية والإسرائيلية على فلسطين، ثمة خطر من أن يحصل إضعاف متزايد لمسألة الدفاع عن الحقوق الوطنية الفلسطينية... علماً أن هذه المسألة لا تكتفي بتبرير دعم الحقوق

مباشرة دولة إسرائيل اقتصادياً واستراتيجياً - وهي دولة مازالت تحتل بشكل غير شرعي أراضي في فلسطين ولبنان وسوريا، وتصدد من استخدامها للعنف المسلح برعاية «حرب بوش الكونية على الإرهاب» لسحق الانتفاضة والحركة الوطنية الفلسطينية، وتتدخل اقتصادياً (وباسم الأمن) في شؤون العراق المحتل أيضاً.

فلسطين: حقوق الإنسان والاحتلال؛
الحقوق الوطنية والمقاومة

لا شك أن القضية الفلسطينية، كما يظهر في المنتدى الاجتماعي الأوروبي، قد غدت مرجعية فريدة لنضال الحركات التقدمية العالمية الداعمة لحق الشعوب في تقرير مصيرها. فانتساع الوحشية العسكرية الإسرائيلية والانتهاكات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في مناطق ٦٧، وبخاصة في السنوات الثلاث الأخيرة من عمر الانتفاضة الثانية، يثير ردود فعل قوية داخل حركة التضامن العالمية، الأمر الذي أثمر حملات معينة كتلك التي أطلقت في فرنسا عام ٢٠٠٢ من قبل «الحملة المدنية العالمية لحماية الشعب الفلسطيني» أو «حركة التضامن العالمية» في الولايات المتحدة. هذه الحملات أسهمت في نشر المعرفة داخل أوروبا والولايات المتحدة، بما يحدث في المناطق المحتلة، وبالتحديات التي تواجه حركة التضامن مع الشعب الفلسطيني.

الأمام برفضهم الخدمة العسكرية داخل المناطق الفلسطينية عام ٦٧ فعاقبتهم المؤسسة العسكرية الإسرائيلية. فقد ضمّ المنتدى عدة منظمات إسرائيلية يسارية، وممثلين اثنين عن حركة الجنود الراضين للخدمة العسكرية. ولكن مع الإقرار بأهمية حركة الجنود هؤلاء، فإنّ من المفيد التفكير باعتبارين آخرين لم يحظيا بأيّ اهتمام تقريباً في النقاشات داخل المنتدى الاجتماعي الأوروبي.

الاعتبار الأول هو أنّ اليسار الإسرائيليّ السلاميّ (الذي يفوق حضوره داخل المنتدى المذكور حضور القوى التقدمية العربية كلّها) يعارض احتلال أراضي الـ ٦٧ من زاوية لا تتخطى إلا قليلاً الالتزام الإنسانيّ - أي الإقرار بالحقوق الإنسانية للشعب الفلسطينيّ - ومن زاوية تستغلّ النضال المعادي للرأسمالية داخل إسرائيل لصالح ذلك اليسار. وهكذا نسمع من هذا الأخير طرْحاً يقول بضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيليّ لمناطق ٦٧ بسبب آثاره السلبية الكثيرة في الاقتصاد الإسرائيليّ جرّاء إعطائه الأولوية لاقتصاد الحرب الدائمة على حساب التطور الاجتماعيّ، وبما يسبّب ازدياداً في البطالة وعدم المساواة والإقصاء. ولكنّ بالرغم من تماسك هذا الطرح اليساريّ الإسرائيليّ، فإنّه لا يشجّب الصهيونية في ذاتها، على الأقلّ بصورة علنية أو بصديق تامّ، مع أنّها هي المكوّن الهدام الأساسيّ الذي يُغذّي

خصوصية دولة إسرائيل. وإلى أن يتخلى اليسار الإسرائيليّ عن الصهيونية ويدينها ويحاربها - وهو ما لم يفعله إلاّ قلّة في المنتدى الاجتماعيّ الأوروبيّ - فإنّ الدعم الذي يُلقاه هذا اليسار من قطاعات كبيرة داخل هذا المنتدى سيكون ذا فائدة بسيطة فقط لا للقضية الوطنية الفلسطينية وحدها بل أيضاً لحرية الإسرائيليين التقدميين حقاً والإسرائيليات التقدميات حقاً الملتزمين والملتزمات بالحقوق الوطنية الفلسطينية.

أما الاعتبار الثاني فهو أنّ اليسار الإسرائيليّ لا يدين إقحام دولة إسرائيل الهيمنّي ضمن المنطقة العربية - وهو جوهر الأهداف الإسرائيلية الصهيونية - ولا يدين تطبيق التطبيع بين العرب وإسرائيل بوصفه إحدى أدوات العولة الرأسمالية في الشرق الأوسط. فإذا كان التضامن الأمميّ دعامة أساسية للحركات اليسارية والتقدمية في كافة أنحاء العالم، فإنّ ذلك يستتبع أن يشجّب اليسار الإسرائيليّ، وأن يحارب، هذه الأهداف الصهيونية (كما فعل يساريو الولايات المتحدة ضمن الحركة المعادية للحرب رداً على سياسة بلادهم الخارجية) في الإطار الإقليميّ للشرق الأوسط العربيّ.

العراق: نهاية للاحتلال

على الرُغم من الشعور الجماعيّ داخل المنتدى الاجتماعيّ الأوروبيّ بمعارضة إبقاء الاحتلال العسكريّ للعراق، فإنّ

الوثيقة النهائية انطبعت بالآثار السلبية للجهات الأكثر «اعتدالاً» داخل المنتدى. فمع أنّ أغلب الأصوات المكوّنة للجنة التحضيرية للوثيقة وافقت على أن يدعو النصّ النهائيّ إلى «الانسحاب الفوريّ للقوات» وإلى «إنهاء احتلال العراق»، فقد تمّ تعديل الصياغة بعد نقاش مطول إلى التالي: «انسحاب القوات» و«إنهاء فوريّ للاحتلال»، الأمر الذي فتح المجال أمام صياغة (لم تناقش إلاّ قليلاً في الجلسات المتعدّدة المكتملة الأعضاء) يُتاح بموجبها استبدال قوات الاحتلال الأميركيّة تدريجيّاً بقوات من الأمم المتحدة كخطوة أولى نحو استعادة البلاد لسيادتها!

الخلاصات النهائية: من الأوروبيّ إلى العالميّ

تُعكس الوثيقة النهائيةّ للمنتدى الاجتماعيّ الأوروبيّ، على الأقلّ في ما يتعلّق بالمسائلتين الفلسطينية والعراقية، الخطّ الاجتماعيّ - الديمقراطيّ المعتدل لبعض الجهات داخل المنتدى، أكثر ممّا ينعكس خطّ المجموعات والمنظمات اليسارية العالمية التقدمية التي تسعى إلى جعل المنتدى الاجتماعيّ العالميّ آلية فعّالة للتعبير والعمل من أجل التغيير في العالم.

ومن ناحية أخرى، ثمة ضرورة ملحّة لتشجيع المنظمات التقدمية العربية على لعب دور أكبر ومشاركة أعظم في المنتدى الاجتماعيّ العالميّ، وذلك لسببين:

على «المنتدى» أن يرفض أطروحة
«اليسار» الأوروبي والصهيوني التي
تقول بأن العنف «يؤدي الشعبين
بنسب متساوية»

١ - على الرغم من أن السياسة الرسمية الأميركية والأوروبية تحارب أي مفهوم للتماسك والوحدة في منطقة هي في حقيقة الأمر شديدة الترابط من مختلف النواحي، فإن المنطقة العربية ككل قد غدت مجالاً مركزاً لنزعة التدخل الأميركية وللرأسمالية النيوليبرالية. بهذا المعنى، فإن النظر إلى احتلال العراق وفلسطين بمعزل عن تلك الحملة المركبة الساعية إلى نشر العولمة الرأسمالية في كافة أرجاء المنطقة العربية - وبمختلف وجوهها السياسية والاقتصادية والثقافية والإيديولوجية - يُسهم في تعزيز خطاب الشرذمة والتقسيم، وهو خطاب أثير لدى الولايات المتحدة وأوروبا من أجل عالم عربي يتصف بالضعف والخضوع والتبعية الدائمة.

٢ - لما كان النضال ضد الإمبريالية أمراً مطروحاً من داخل العالم العربي، فإن من الضروري تقوية الحوار مع الأطراف التقدمية العربية، والتعريف بمواقفها - أمام الرأي العام الدولي - وكفاحها ضد العولمة الرأسمالية ونزعة التدخل، بملحظ أن هذا الكفاح ليس إلا كفاحاً ضد «تطبيع» إسرائيل بالقوة ضمن سياق المنطقة العربية. فإسرائيل والولايات

المتحدة تحاولان (بمساعدة جزئية من الاتحاد الأوروبي) فرض التطبيع (الاقتصادي أساساً ولكن السياسي والاستراتيجي والإيديولوجي أيضاً) على عدة أنظمة سياسية غير شرعية، خلافاً لآمال الشعب العربي ومصالحه. إن كفاح العرب ضد التطبيع هو المبدأ السياسي الذي يشكّل محور الصراع ضد العولمة الرأسمالية في العالم العربي، ويجب من ثم أن يكون عنصراً لا غنى عنه في أجندة التضامن العالمي الذي يحاول المنتدى الاجتماعي العالمي أن يبتناها.

إن القرار الأخير بتأجيل إنشاء المنتدى الاجتماعي المتوسطي (الذي يقترح إدخال منظمات من دول عربية متوسطة إلى جانب منظمات من إسرائيل وتركيا ومالطا ودول البلطيق)، لكون «الأوضاع السياسية غير ملائمة» يفتح السجال حول سؤال مركزي بالنسبة إلى المنظمات العربية: مَنْ هي، وأي منها ينبغي أن يمثل العالم العربي عند تشكيل المنتدى الاجتماعي المتوسطي؟

إن غياب حضور عربي قوي في المنتدى الاجتماعي العالمي يُعزى إلى غياب تقليد من الترابط القوي بين المؤسسات والمنظمات والهيئات داخل العالم العربي.

ويجب الإقرار بأن المسار الأوروبي لا يُعرف إلا القليل عن العالم العربي من الناحية السياسية الاجتماعية، وأن حواراً أوروبياً مع التقدميين العرب قد يعنى اتصالات مع قطاعات عربية أكثر جذرية مما قد يقبله اليساريون الأوروبيون واليساريون الإسرائيليون. فثمة تقدميون عرب، مثلاً، يشككون بمبدأ المنتدى الاجتماعي المتوسطي أصلاً، في ضوء الحاجة الملحة إلى إنشاء منتدى اجتماعي عربي. والأسئلة التي يجب طرحها في هذا الصدد هي: لماذا لا يوجد منتدى اجتماعي عربي في المنتدى الاجتماعي العالمي؟ أين يمكن للتقدميين العرب خارج منطقة البحر المتوسط - أمثال السودانيين واليمنيين والخليجيين... - أن ينسقوا نشاطاتهم إن لم يكن ذلك في منتدى اجتماعي عربي، ومع بقية العالم العربي؟ ألا ينبغي على المنتدى الاجتماعي العالمي أن يعرف بهذه المنظمات التقدمية العربية وأن يتيح لها أن تحدّد هي نفسها - وأن تُنشئ وتموّل بنفسها أيضاً - منتداهما الاجتماعي العربي الذي تستطيع أن تُفصح فيه عن طموحاتها وأن تجد لنفسها منبراً لنشر هذه الطموحات أمام الحركة العالمية؟

إسبانيا